العنوان الخامس

النفير من أجل التغيير

لو قُدِّر لإبليس اللعين أن يؤلف كتاباً، لاختار له عنواناً قريباً من حيث الصياغة، من هذا العنوان، ومغايراً له من حيث الدلالة، ولكان العنوان، الذي يختاره هذا اللعين، هو: التنفير من التغيير.

إن من أبرز الأهداف التي يسعى إليها إبليس، وأعوانه أن يُقنع الناس أن الأمان كل الأمان، في إبقاء ما كان على ما كان، إن كان التغيير يؤدي إلى التجديد، والتجويد.

ذكر أ. د. عبد اللطيف الحكيمي "أن التغيير ينقل الناس من النور إلى الظلام، ومن المعلوم، إلى المجهول"، ولا أحد يرغب في أن يضع نفسه في هذا الموقف، وقد تبدو هذه المقولة، غامضة من نظرة عجلى، بيد أنها معقولة، وذات دلالات.

ذلك إن المرء بطبعه، يأنس بالوضع الذي اعتاد عليه، أياً كان، وينشأ بينه وبين هذا المحيط، صداقة عجيبة، فهذا الشاعر الشنفرة يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب، إذ عوى وصوّت إنسان، فكدت أطيرُ

هذه قناعة عجيبة، يُعبر عنها الشنفرة، ولغيره أمثالها كثير، وهذا يؤكد أن السعي إلى تغيير القناعات، مقدم على السعي، إلى تغيير الواقع. ليس من السهل، على المرء أن ينتقل إلى مجهول، لا يدري ما يخبئ له، حتى لو غلب على ظنه أحياناً، أنه أفضل مما هو فيه، فالخوف في هذا المقام، هو سيد الموقف، وقد قيل إن الرجال عبيد الخوف.

إن مما يُقرِّب هذا المعنى، ويشهد له، ما يُرى من حالات بعض المسجونين، الذين قضوا فترات طويلة في السجن، فإن بعضهم حين يفرج عنه، يحزن كثيراً، لأنه اعتاد على محيط، صار مألوفاً لديه، ويصل الأمر ببعضهم إلى العودة إلى ارتكاب الجرائم، حتى يعود إلى السجن مرة أخرى، وقد حدث هذا، ويحدث.

كنت شاهدت برنامجاً، يتحدث عن عادةٍ لدى كثير من الأسر الغربية، تتمثل في تغيير ترتيب أثاث البيت من حين لآخر، فيعيدون ترتيب المقاعد، في الغرفة الواحدة، ويغيرون استعمالات الغرف، وهذه حركة إيجابية فيما يظهر، كاشفة عن منهجٍ في الحياة، لا تعرفها الأسر العربية، فيما أعلم، ولا تؤمن بها.

حين يعزم الأنبياء، والمصلحون، على إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس، يأخذ بأيديهم إلى حيث الأمن، والسعادة ينبري الشيطان لهم، ويقف في طريقهم.

هـذا مـا ذكـره القـرآن الكـريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ سورة الحج (الآية: ٥٢).

تسهم الوساوس الشيطانية، حين تلتقي مع سلبيات النفس البشرية، في التهويل من التغيير، والتهوين من آثاره، وثماره الإيجابية، وهذا يُفسر إعراض الناس عن السعي إلى التغيير، على الرغم من أن النفس البشرية، السوية تتشوق إليه، في مواطن كثيرة، لمجرد أنه تغيير.

إن التغيير سنَّةٌ كونية، وهو سنَّةٌ اجتماعية كذلك، وليس سنَّةَ أفراد، سنَّةٌ نراها في الليل والنهار، والشمس والقمر، وفي أحوال الأرض، والناس، وقد أحسن من قال إنك لا تنزل في ماء النهر الواحد، مرتين.

ليس يبعد عن الصواب، القول إن العلة لا تكمن في التغيير، من حيث هو تغيير، وإنما هي عوارض تصاحبه صارت بمثابة عقبات تقف في طريقه، وتقلل من الحماس إليه، وهي على أية حال، ليست مستعصية على العلاج.

يُسهم عدم توفر المعلومات، في صرف الناس عن قبول مبدأ التغيير، أو الترحيب به، فليس من السهولة إقناع شخص ما، أو مؤسسة بقبول التغيير، ما لم يظهر لهم الفرق واضحاً، بين ما هو كائن الآن، وما سيكون عليه الوضع، بعد التغيير.

إن الإنسان بطبعه ينحاز إلى الحاضر، الذي يعايشه، ويتغنَّى بالماضي، بخاصة إذا لم تكن لديه معايير للحكم عليه، وتقويمه، مما يجعله يتوهم أنه ليس بالإمكان، أحسن مما كان، بخاصة إذا كان مسروراً من الأوضاع السائدة، مطمئناً إليها.

إن التغيير قد يعني عند الإنسان تبدل هذه الأحوال إلى غيرها بما لا يسر، وعندها سوف يشعر بالخوف، ويعلوه الهم، وقد شخَّص المتنبي طرفاً من هذا فقال:

أشدُّ الهم عندي، في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

وإذا أضيف إلى هذا، أن الإنسان عدو لما يجهل، شاك في آثاره، زاهد في ثماره، تبين مدى صعوبة إحداث التغيير المنشود.

قد لا يميل بعض الناس إلى التغيير، ظناً منه أن محيطه الذي يعيشه، باقٍ على حاله، لم يتغير فيه شيء، وهذا وهم، تتولد منه أوهام، فالحياة دائمة التغيير، وهي تركض ركضاً.

إن الإنسان من حيث هو ميَّال إلى متابعة الآخرين ومشابهتهم، وعدم الخروج عمَّا اعتادوا عليه، وهذا المسلك، وإن كان مريحاً مأموناً، إلاَّ أنه في نظر روبرت فروست، ليس هو الخيار الأمثل، فهو يقول: "في توصيف هذه الحالة، وصلت إلى مفترق طريقين، في الغابة، فاخترت الطريق الذي لا يسلكه الكثيرون، هذا الخيار هو الذي غيَّر العالم".

ينظر بعض الناس إلى التغيير، على أنه مزيد من المسؤوليات، لأنه يعني تغيير في الممارسات، والعادات، وغالباً ما يصاحب التبديلَ والتجديدَ، عثراتٌ في الطريق، وثغراتٌ في التطبيق، تأتي بالمتاعب.

وقد يتوافر الحرص والإخلاص عند طائفة لكنها تتردد في الإقدام على التغيير بسبب الخوف من الفشل في التطبيق بخاصة عند الشعور بقصور الصلاحيات.

يؤدي هذا الفهم إلى الزهد في أية عملية تغيير تقترح، بخاصة إذا كان المرء، يحرص على حظ النفس، ويستحضر مصلحته الشخصية، عند النظر في نتائج هذا التغيير.

تُؤثر الثقافة السائدة في التغيير، سلباً، وإيجاباً. ففي كثير من الأحيان لا تتقبل هذه الثقافة التغيير، ولا تشجع عليه، وربما يصل الأمر إلى محاسبة من يسعى إليه.

في أحسن الأحوال، قد لا يُعان صاحبه عليه، في حين أنه لن تتحقق الجودة، بمجرد القبول بالتغيير من قبل طائفة، بل لابد من المشاركة فيه، والإعانة عليه.

بيد أن هذه الثقافة لن تبقى كما هي، سداً في وجه التغيير. فإنه كثيراً ما يفرض التغيير نفسه تدريجياً، دون إشكالات أو خسائر، وغالباً ما يصبح رأي الأقلية المحاصر، رأياً عاماً تتقبله الأكثرية، وتدافع عنه شاء من شاء وأبى من أبى كما قيل.

يُعد الاحتراق المهني عقبة كأداء، في طريق التغيير، فإن ثمة أناساً، يستغرق منهم العمل اليومي المعتاد، كل أوقاتهم، ويستنفذ كل طاقاتهم، فلا يبقى لديهم وقت، لمجرد التفكير في التغيير المفضي إلى التجويد، بحجة الانشغال التام، والحرص على إنجاز المهام الحاضرة.

يبرز في هذا المقام، ما يمكن أن يُسمى بتقاذف كرة النار، بين الأطراف، حين يتسرب إلى الأشخاص وهْمٌ، مفاده أن التغيير مهمة أشخاص آخرين، أو جهات عليا، وليس من صلاحياته، أو مصلحته حتى مجرد التفكير فيه، وهذا هو الهروب إلى الأمام بعينه، وما أكثر ما يُرى هذا الهروب، في صور متنوعة.

يُنادي داعي الخير، والتغيير، في مثل هذه الأجواء على أولئك العظماء، الذين استجابوا لصوت النفير، وحرَّك حماسهم وهج الضمير، وكأن كل واحد منهم، هو مَنْ عناه أمير الشعراء بقوله:

وكن رجلاً إن أتوا بعده يقولون مرَّ، وهذا الأثر

إن رواد التغيير جسور، تمرُّ الأمة كلها عبرهم إلى حيث الأحسن، والأجود، وما أجمل ما قال عمر أبو ريشة:

تقضي البطولة أن نمد جسومنا جسراً، فقل لرفاقنا أن يعبروا

لم يغب عن بال دعاة التغيير، تلكم العقبات التي تعترض طريقه، ولكن لابد من التحرك نحوه، واقتحام العرين، وليكن الشعار، لابد من صنعاء، وإن طال السفر.

لما أدرك العظماء أن الحركة ولود والسكون عاقر، بادروا إلى صناعة فرص التغيير، إذ ليس من صفاتهم أن ينتظروها، فقد تأتي متأخرة، وربما لا تأتي، أصلاً، وقد أحسن من قال، إن أعظم فكرة هي تلك التي يأتي أوانها. ومن نتج التغيير، انتج له فراخاً من الخير، والتجويد.

إن التغيير الذي نريد، والمؤدي إلى التحسين، والتجديد، والتجويد، لا يكون كيفما اتفق، فلابد أن يصاحب هذا التغييرَ سلامةٌ في التقدير.

وحُسن في التعبير، فكم من شخصٍ أساء إلى فكرة، من حيث يظن أنه يُحسن إليها. هذا عند حسن الظن به، أما عند سوء الظن، فإنه يقال كم من شخصٍ، جعل التغيير مطيةً يحقق من خلالها، أهدافه.

حصل أن جاء التغيير على ظهور الدبابات في مناطق عدة يحمل معه الإصلاح، فتبخر الإصلاح، وبقيت الدبابات، تنذر بالتدمير، كما قال الراشد، في العبير وصدق القائل:

رب يوم بكيت منه فلمّا صرت في غيره، بكيت عليه

لا يقتصر التغيير كذلك على المظاهر الخارجية فقط، ولا على جوانب، دون أخرى، وهو ليس غاية في حد ذاته.

التغيير الذي يؤتي ثماراً طيبة، هو ذلك التغيير، الذي يبدأه الرواد، ونهايته حاضرة أمامهم، إنه وسيلة تعتمد تحليلاً للواقع، وتقويماً صادقاً له، يتبعه تخطيط، يتضمن آليات التغيير، في ضوء ترتيب الأولويات، واستحضار البدائل، بغية إيجاد وضع جديد يكون الأفضل، والأحسن، والأجود.

إن الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل، نحو التجديد، والتجويد، تتمثل في القناعة بأهمية التغيير، وفي الجُرأة عليه، وفي الإفادة منه حين يحدث، لأنه وسيلة، وبوابة، وهذا يستدعي أن تستحدث المؤسسات التعليمية إدارة باسم إدارة التغيير؛ لأن التغيير لا يحسن أن يكون كيفما اتفق ولا يتم دونما نسق.

يقبح أن نكون مثل أولئك الذين يُتعبون أنفسهم، في تعليم أطفالهم الكلام، فإذا أتقنوه قالوا لهم اسكتوا، ولقد اتفق العلماء على أن التخلية، مقدمة على التحلية بمعنى أن التخلص من الأفكار، والعادات السلبية، مقدم على التحلي بالصفات الإيجابية.